

الاختلاف لا يعني الانتقام

والحذر الحذر من أن تخالف إخوانك، فتخذلهم وتفرق جمعهم وكلمتهم بأفعال وأقوال وفتاوى شاذة تخالف الكتاب والسنة وفهم السلف والمنهج الصحيح، وفي المخالفة مفسدة وتشويش وتشكيك في صفوف العامة وغيرهم، وطريق لأهل الأهواء لاستغلال تلك المخالفة لضلالهم وبدعتهم وانحرافهم، فلا تجعل من خلافك معهم في بعض المواقف سبيلاً إلى ذلك وعداء وشقاقاً وأحزاباً وأشتاتاً وشماتة من أهل السوء في أهل العلم والحق والدعوة.

ولا يضلنك ولا يغرّنك الشيطان فيزين لك السوء خيراً ويلبسه لبسة الحق، والسكوت خير وإن ظهر لك شيء من الحق، فالاجتماع مصلحته أعظم، والنصيحة بابها مفتوح بالحكمة لا التشهير، ولا يكن في سجل تاريخك يوماً أن كنت سبباً في تفرقة المسلمين، خاصة المسلمين وأهل الفضل من طلاب العلم والدعاة، وإذكاء التناحر بينهم وزرع الفتنة والشقاق وإضعاف العمل الخيري بكل أنواعه، وربما إيقافه، وإلحاق الأذى بإخوانك بالوشاية واللمز والتهم والتعريض ونحوها، فإن الإنسانية والأخلاق والمروءة والعلم تأبى ذلك، وأعيذك وحاشاك كل ذلك، والله حسيب على كل نفس.

لقد نجح الشيطان في تفريق قلوبنا وشق صفوفنا، ووصل إلى أعماقنا ودواخلنا وزرع فيها الضغائن والأحقاد والكراهية والحسد، فصرنا نختلف على أبسط الأشياء، ويهجر بعضنا بعضاً على مسائل الاجتهاد، فضلاً عن التناحر

والاقتتال، ولكنه رجس الشيطان وخبثه.

وصدق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيَسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»^(١).

لنجتمع على كلمة سواء ونشتغل بالأهم فالأهم، وإذا لم نستطع أن نوحّد القلوب ونرصّ الصفوف فلا نكون على الأقل سبباً في شتاتها واختلافها وشق صفها.

الاختلاف لا يكون طريقاً للانتقام وتصفية الحسابات، والسعي في قطع الأرزاق، والإضرار بالآخرين وإسقاطهم وتشويه سمعتهم في المجالس ووسائل التواصل، واستعداد الآخر عليهم من عدو و ظالم ونحوه.

الاختلاف لا يكون طريقاً للتشفي والفرح بالابتلاء ونصرة الظالم على المظلوم.

الاختلاف لا يكون طريقاً للسكوت عن نصرة المظلوم والذب عن عرضه.

الاختلاف لا يعني عدم الدعاء للمظلوم، وعدم بذل واجب الأخوة الإيمانية والتعامل بالأخلاق الإسلامية.

أخرج صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بلده وأوذي واتهم بالسحر وكسرت رباعيته، ولما دخل مكة منتصراً قال: (ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم ابن أخ كريم. فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء)^(٢).

والخلاف في كفر وإسلام، وشرك وتوحيد، ليس خلافاً في واجب أو شرط أو سنة أو فكرة.

(١) رواه مسلم (١٢٢٨).

(٢) حكاها البيهقي في السنن الكبرى (١٨٢٧٦).

● قال ابن الأنباري: (كان الحسن البصري يدعو ذات ليلة: اللهم اعف عمن ظلمني. وأكثر في ذلك، فقال له رجل: يا أبا سعيد، لقد سمعتك الليلة تدعو لمن ظلمك، حتى تمنيت أن أكون أنا فيمن ظلمك، فما دعاك إلى ذلك؟ قال: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(١) [الشورى: ٤٠].

● وقال ابن المبارك عن إمام الفقهاء أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: (ما أبعد أبا حنيفة من الغيبة! ما سمعته يغتاب عدوًّا له قط. قال: هو والله أعقل من أن يسלט على حسناته ما يذهب بها)^(٢).

● وعن بكير بن معروف: (قلت لأبي حنيفة: الناس يتكلمون فيك ولا تتكلم أنت فيهم! فقال: هو فضل الله يؤتیه من يشاء)^(٣).

صافٍ كهاءِ المزنِ مخبره زالكِ كأنفاسِ الشذى برّ

● وعن مطرف بن عبد الله: (قال لي مالك: ما يقول الناس فيّ؟ قلت: أما الصديق فيثني، وأما العدو فيقع. فقال: ما زال الناس كذلك، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها)^(٤).

● وها هو إمام أهل السنة أحمد بن حنبل يقول: (وقد جعلت أبا إسحاق - يعني المعتصم، وقد سجنه وأمر بضربه حتى أغمي عليه وسال منه الدم - في حل، ورأيت الله يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] وأمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر بالعفو في قصة مسطح. ثم

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٥ / ٥٨٧).

(٢) تاريخ بغداد (١٣ / ٣٦١).

(٣) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (٢ / ٥١٩).

(٤) سير أعلام النبلاء (٧ / ١٦١).

قال: وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسلم في سبيلك! (١).

يُنبيكَ عن قربِ النبوةِ هديهُ والمرءُ يُخبرُ فعلُهُ عن قولهِ

● وهذا ابن تيمية الحنبلي رَحِمَهُ اللهُ يقول: (هذا وأنا في سعة صدرٍ لمن يخالفني، فإنه وإن تعدَّى حدودَ الله في تكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدى حدودَ الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتمناً بالكتاب الذي أنزله الله، وجعله هدى للناس حاكماً فيما اختلفوا فيه) (٢).

● وقال في رسالة كتبها وهو في السجن إلى تلاميذه ومحبيه، يتحدث عن خصومه الذين تسببوا في دخوله السجن، وكانوا سبباً في مصادرة كتبه، قال: (أنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته الجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات) (٣).

● وفي ذيل الطبقات: (ولما دخل السجن وكان معه أخوه الشيخ شرف الدين، ابتهل ودعا الله عليهم - على خصوم ابن تيمية - في حال خروجهم، فمنعه الشيخ وقال له: بل قل: اللهم هب لهم نوراً يهتدون به إلى الحق) (٤).

● وكان ممن سعى في إيذائه القاضي زيد الدين ابن مخلوف قاضي المالكية، فقال: (وأنا والله من أعظم الناس معاونَةً على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها، وإقامة كل خير، وابن مخلوف لو عمل مهماً عمل والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أعين عليه عدوه قط، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هذه نيتي

(١) البداية والنهاية (١٠ / ٣٦٨) سير أعلام النبلاء (١١ / ٢٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣ / ٢٤٥).

(٣) السابق (٢٨ / ٤٢).

(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٤ / ٥١٢).

وعزمي، مع علمي بجميع الأمور، فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عوناً للشيطان على إخواني المسلمين، ولو كنتُ خارجاً لكنتُ أعلم بماذا أعاونه، لكن هذه مسألة قد فعلوها زوراً، والله يختار للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة في دينهم ودنياهم، ولن ينقطع الدور وتزول الحيرة إلا بالإنابة إلى الله والاستغفار والتوبة وصدق الالتجاء، فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١).

صفوحٌ عن الإِجرامِ حتى كأنه
من العفوِ لم يعرف من الناسِ مُجرماً
وليس يُبالي أن يكونَ به الأذى
إذا ما الأذى لم يغش بالكرهِ مُسلماً

ومن مواقفه لما مات أحد أعدائه:

● قال ابن القيم: وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: (وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه، وما رأيتُهُ يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم، وجئتُ يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدّهم عداوة وأذى له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزّاهم وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه. ونحو هذا من الكلام، فسروا به ودعوا له وعظّموا هذه الحال منه. فرحمه الله ورضي عنه)^(٢).

● قال القاضي ابن مخلوف، وقد كان خصماً له: (ما رأينا مثل ابن تيمية، حرّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا)^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٣ / ٢٧١).

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٢٩).

(٣) البداية والنهاية (١٤ / ٦١).

● وقد ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية»: (أن السلطان الملك الناصر لما رجع إلى الملك مرة ثانية، كان همُّه في طلب الشيخ ورؤيته، فلما تقابلا اعتنقا هنيهة، ثم أخذ معه ساعة يتحدثان، وكان من حديثهما أن طلب الملك الناصر من ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ أَنْ يفتي في قتل بعض القضاة بسبب ما تكلموا فيه، وحثه على ذلك، إلا أن ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ أَخَذَ فِي تعظيم هؤلاء القضاة والعلماء، وبيان مكائدهم، وينكر أن ينال أحداً منهم بسوء، وقال له: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، ومن آذاني فهو في حلٍّ وأنا لا أنتصر لنفسي)^(١).

ولسان حاله:

فَمَا كَانَ صَدْرِي لِلضَّغِينَةِ مَوْطِنًا وَمَا كَانَ رَأْسِي مَعْمَلًا لِلدَّسَائِسِ

● وروى الشعراني عن الشيخ عبد القادر الشاذلي: (أن السيوطي امتحن المحن الكثيرة، وما سمعته يوماً واحداً يدعو على من آذاه من الحسدة ولا يقابله بسوء، وإنما يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل! وصنّف في ذلك كتاباً سماه تأخير الظلام إلى يوم القيامة)^(٢).

● قال الشوكاني: (وقد وقفت على رسالة لبعض أهل العلم، ممن جمعني وإياه طلب العلم، ونظمتنا جميعاً عقد المودة وسابق الألفة، فرأيت يقول فيها مخاطباً لإمام العصر: إن الذي ينبغي له ويجب عليه أن يأمر جماعة يكبسون منزلي ويهجمون مسكني، ويأخذون ما فيه من الكتب المتضمنة لما يوجب العقوبة من الاجتهادات المخالفة للمذهب، فلما وقفت على ذلك قضيت منه العجب، ولولا أن تلك الرسالة بخطه المعروف لدي لما صدقت، وفيها من الزور والبهت

(١) البداية والنهاية (١٤ / ٦١).

(٢) ذيل الطبقات للشعراني (٣٤).

والكلمات الفظيعة شيء كثير، وهي في نحو ثلاثة كراريس، وعند تحرير هذه الأحرف قد انتقم الله منه، فشرده إمام العصر إلى جزيرة من جزائر البحر مقروناً في السلاسل بجماعة من السوقة وأهل الحرف الدنيئة، وأهلكه الله في تلك الجزيرة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ومن جملة ما وقفت عليه من الرسائل المؤلفة بعناية هذا الوزير (الرافضي) رسالة لبعض مشائخي الذين أخذت عنهم بعض العلوم الإلهية، وفيها من الزور ومحض الكذب ما لا يظن بمن هو دونه، وما حمله على ذلك إلا الطمع في الوزير، فعاقبه الله بقطع ما كان يُجْرَى عليه من الخليفة، وأصيب بفقر مدقع وفاقة شديدة حتى صار عبدة من العبر، وكان يفد إلي يشكو حاله وما هو فيه من الجهد والبلاء، فأبلغ جهدي في منفعته وما يسد فاقتة^(١).

مواقف سامية رباها العلم وزكاها الوحي، وترجمها العلماء في سيرهم، وهي ذكرى موقظة.

ولكن أرى الذكرى تنبّه عاقلاً إذا هي جاءت من رجال الحقائق

● قال تقي الدين: (ومن طلب الانتقام لنفسه ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استدراكه، ولعل هذا أعظم من المصيبة التي نالته من جهتهم)^(٢).

الاختلاف يكشف لك أخلاق الرجال ومعادنها وصفاء النفوس وسموها وإنصافها وعدلها.

يا أهل العلم والفضل: إيماننا أجل، وأخلاقنا أسمى، ومروءتنا أسنى من

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب (٥١).

(٢) جامع المسائل (١ / ١٧٠).

أن تدنسها حظوظ النفس وآفات القلوب.

الحذر الحذر من أن يكون البغي والانتقام باسم الدين و المصلحة والنصح والعدالة والحقوق ومن أجل الله والغيرة على دين الله.

وأهل السنة من سماتهم أنهم يعلمون الحق ويرحمون الخلق، فإنهم أصحاب هدي واتباع، وأرباب عمل واقتداء، وكانوا أوسع الناس رحمةً وأعظمهم شفقة، وأصدقهم نصحاً.

وخذا قاعدة ذهبية في حياتك العلمية والدعوية:

(لا تحسر أحدًا في طريق الدعوة إلى الله، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، إن لم نتفق فلا نفرق، ولا يبغى بعضنا على بعض) وستجد حلاوتها وثمرتها ويقينها ولو بعد حين، جعلك الله من الهداة المهتدين.

إن من يتكلم في أئمة الدين وعلماء الإسلام ودعاته الذين لهم قدم صدق في الإسلام، صراحة أو تعريضا، ويروم إسقاطهم، فإنما يسقط نفسه ويزري بها، فلا وزن له.

● قال الإمام مسلم في مقدمته: (عن ابن المبارك يقول على رؤوس الناس: دعوا حديث عمرو بن ثابت فإنه كان يسب السلف)^(١).

وليس للمتطاولين والمتعالمين والمتعالين سوى مثلك من هجر مجالسهم وحديثهم ردعا وزجرا.

ومن المصائب:

(١) مقدمة صحيح مسلم (١/١٦).

ذو جنونٍ وزادَ فيه جنونًا أن يُرى ذا الحجا يُطعُ جنونَه

وعلى علماء الأمة وعقلائها: أن ينادوا ويتنادوا لرأب الصدع والاجتماع على كلمة سواء، وزجر المتطاولين وتأديبهم، ومن يستغلون الخلاف في إيغال الصدور وتفريق العلماء، فإن كثيرًا من طلاب العلم والشباب حصل بينهم الصراعات، وانشغلوا بها وتفرقوا أحزابًا وجماعات، كل منهم يتبع فلانًا، ومن لم يتبع شيخه فإنه منحرف وضال، فحصل بهذا من المفاسد شيء كثير، ورجع أثرها سلبيًا على العلم والدعوة والعامّة من الناس! والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! مضت السنون والسنون والأمة تعاني من مثل هذا، والصدع والشرخ يزداد يومًا بعد يوم، فهل من مذكر!

اجعلوا طلابكم يخرجون من مجالس العلم وهم في سعادة وفرح ونفع وفائدة، دون أن تمتلئ قلوبهم حقدًا وضعينة على أحد، تلميحًا أو تصريحًا.

أيها العلماء والعقلاء: بادروا في جمع الفرقة والفرقاء، كونوا نماذج وقدوات للأجيال، لا تخلفوا تركة مليئة بالفرقة والخلاف للأمة والأجيال، والله سائلكم عن ذلك.

سفراء العلم والدعوة: خلفوا تركة مليئة بالمعاني والفضائل السامية والائتلاف لا الاختلاف والضغائن والتنافر، ورثوا ما ورثه الرسول **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** للأمة، تراحموا ولبنوا في أيدي إخوانكم، تعاونوا وتعاضدوا وتناصروا وتآزرُوا، وتناصحوا، وتصالحوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، واقبلوا النصيح، ولا تأخذكم حظوظ النفس فتهلككم.

